Sirte University Journal of Humanities **(SUJH)** مجلة جامعة سرت للعلوم الإنسانية
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/Humanities/index
https://doi.org/10.37375/sujh.v13i1.1384

في منهج دراسة الأوبئة الكبرى في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط – طبيعة المصادر والمقاربات المنهجيّة

حياة عمامو
Hayet.amamou2014@gmail.com
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة تونس/تونس

الملخّص

أعادت جائحة كوفيد 19 التي اجتاحت العالم لمدّة سنتين، اهتمام الباحثين في كلّ المجالات بظاهرة الأوبئة، التي انتشرت في كلّ مناطق العالم منذ أقدم العصور، وكان المؤرّخون من بين المهتمّين بالأوبئة وما ينجرّ عنها في كلّ الفترات التّاريخيّة. ونظرا لانتشار الأوبئة في كلّ مناطق العالم القديم وخاصّة منها الغرب المسيحي، والمشرق الإسلامي والغرب الإسلامي، اخترنا في هذه الورقة البحث في ظاهرة الأوبئة الكبرى ببلاد المغرب إبان العصر الوسيط من النّاحية الأستيوغرافيّة والمنهجيّة، نظرا لما تمثّله من صعوبات بالنّسبة للباحثين بسبب ندرة المصادر وطبيعتها الإسكاتولوجيّة، وهو ما يمثل عائقا أمام الاعتماد في دراستها على مقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة.

الكلمات المفتاحية:
الأوبئة، بلاد المغرب، العصر الوسيط، الأستيوغرافيا، الدّيمغرافيا التاريخيّ.

On the program of the study of the great epidemics in the Maghreb in the Middle Ages Nature of sources and methodological approaches

Hayet Amamou
Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis/ Université de Tunis

Abstract

The COVID-19 pandemic, which has been raging around the world for the past two years, has rekindled the interest of researchers in all fields in the epidemic phenomenon that has been spreading around the world since ancient times. Historians were among those interested in epidemics and their consequences in all historical periods. Given the spread of epidemics in all regions of the Old World, in particular the Christian West, the Muslim East and the Maghreb, we have chosen to study the phenomenon of major epidemics in the Maghreb in the Middle Ages from a historiographical and methodological point of view, because of the difficulties it posed for researchers due to the scarcity of sources and their eschatological nature, which constitutes a major obstacle to the approach of historical demography.

Keywords

Pandemic, Maghreb, Medieval Times, Historiography, Demography history.

المقدمة

عاش العالم على وقع جائحة كوفيد 19 منذ بداية 2020، فرجع إلى الأذهان الفضول من أجل الاطّلاع على ما خلّفته ذاكرة الإنسانيّة من آثار مكتوبة وصامتة، لاستعادة وفهم ما عرفته البشريّة من كوارث وبائيّة في مختلف العصور التّاريخيّة، ولفهم هذه الظاهرة وانعكاساتها الاجتماعيّة، والدّيمغرافيّة، والنّفسيّة، وغيرها التي لا تنتهي إلاّ لتعود من جديد، بدا لنا من المهمّ إعادة النّظر في موضوع الأوبئة الكبرى، في مختلف الفترات التّاريخيّة من زوايا مختلفة، ولعلّ أبرز القضايا التي يمكن أن تطرح في هذا الإطار هو موضوع الأستغرافيا، بمعنى مجموع المصادر والدّراسات المتعلّقة بمسألة الأوبئة.

صحيح أنّ كوفيد 19 بحكم عنفه، وانتشاره السّريع والواسع، يوضّح بشكل جيّد أنّ زمن الأوبئة لم ينته بعد من العالم، ولكنّ طبيعته وتأثيره الدّيمغرافي وتمثّله وتمثّل تبعاته يختلف تماما عن الجوائح والأوبئة التي عرفتها الإنسانيّة في مختلف العصور التّاريخيّة، ولكي ندرك هذا الاختلاف ونفهمه سنتناول الموضوع من زاوية نظر الدّيمغرافيا التّاريخيّة، الّتي تُفرّق بين النّظام الدّيمغرافي القديم، والنّظام الدّيمغرافي الحديث، وبالرّغم من أنّ هذا التّفريق بين هذين النّظامين الدّيمغرافيين لا ينطبقان على كلّ البلدان، والمناطق بنفس الكيفيّة، فإنّه لم يمنع من التّغيير الجذري الذي طرأ على النّظام الدّيمغرافي في أكثر مجالات العالم.

نتناول على أساس هذا التّفريق مسألة الأوبئة الكبرى في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، من خلال الأزمات الدّيمغرافيّة التي تنجرّ عنها،

وتأثيرها على المجتمع والاقتصاد، وتمثّل أسباب هذه الأوبئة وكيفيّة التّوقّي منها، أو معالجتها.

إنّ اختيار بلاد المغرب لدراسة موضوع الأوبئة في العصر الوسيط يحيل على صعوبات كثيرة، لعلّ أبرزها تلك المتعلّقة بالمصادر. نتيجة لندرتها، مقارنة بما يتوفّر عنها في المشرق الإسلامي والغرب المسيحي، بالنّسبة لنفس الفترة التاريخيّة، فضلا عن طابعها الإسكاتولوجي الذي كثيرا ما يكون عائقا أمام الدّراسات التي تعتمد مقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة، بسبب غياب المعطيات الكمّيّة مثلما هو الأمر بالنّسبة إلى الفترتين الحديثة والمعاصرة.

1- طبيعة المصادر المعتمدة لدراسة أوبئة بلاد المغرب في العصر الوسيط:

سبق وأنّ تناول الكثير من المؤرّخين المغاربة بالبحث، مسألة الأوبئة خلال العصر الوسيط في كثير من مناطق بلاد المغرب في فترات تاريخيّة مختلفة من وجهة نظر التّاريخ الاجتماعي، وأجمع جلّ هؤلاء الباحثين على ندرة المصادر المتعلّقة بهذا الموضوع (الأخضر، 2021، ص. 48، وكذلك، ياسين، 2021)، ممّا يجعل البحث فيه أكثر مشقّة وصعوبة، نتيجة غياب المعلومات حول الأوبئة، خلافا للشّرق الإسلامي ومصر والغرب المسيحي، فإذا كانت المادّة متوفّرة بكثرة رغم تشتّتها بين المصادر بالنّسبة للشّرق الإسلامي بما في ذلك مصر، فإنّ هذا لم يحلْ دون وجود كتب مخصّصة كلّيّا للطّاعون، بدءا بأسبابه وعلاماته، وصولا إلى تأثيراته مرورا بالتّوقّي منه ومعالجته، ومن هذه الكتب ما هو مفقود، ومنها ما هو مخطوط، ومنها ما نُشر بتحقيق أو بدونه، علما وأنّ المجاعات والأوبئة يمثّلان أشدّ الأزمات خطرا على المجتمع في النّظام الدّيمغرافي القديم. وتُعتبر المصادر المتوفّرة في الغرب المسيحي لدراسة ظاهرة الكوارث الطّبيعيّة وخاصّة الأوبئة أكثر أهميّة، وأشدّ دقّة، وتُعرف باسم السّجلاّت الأبرشيّة les registres paroissiaux التي لم تنتظم بشكل جيّد إلاّ انطلاقا من القرن السّادس عشر بالنّسبة لفرنسا، غير أنّها وجدت بكثرة خلال العصر الوسيط، ومثّلت أهمّ المصادر المعتمدة في دراسة سلوكيّات النّاس والهياكل الدّيمغرافيّة، ولعلّ وجود مثل هذه السّجلاّت الأبرشيّة في أوروبا المسيحيّة بصفة عامّة وفي فرنسا خاصّة، هو الذي يفسّر على ما نعتقد، الاهتمام الكبير الذي أبداه المؤرّخون والدّيمغرافيّون الفرنسيّون بمجال الدّيمغرافيا التّاريخيّة فأصبحوا من روّادها.

اهتمّ الكثير من المؤرّخين المغاربة بالدّيمغرافيا التّاريخيّة وخاصّة فيما يتعلّق بالكوارث الطّبيعيّة، ومنها الأوبئة وسلوكيّات النّاس تجاهها (المرض والتّوقّي منه ومعالجته- الموت وطقوسه- تأثيرات هذه الكوارث على حياة البشر وأنشطتهم)، والتّأثيرات الدّيمغرافيّة على الصّعيدين الاقتصادي، والاجتماعي التي خلّفتها.

وأشار كلّ الّذين تناولوا موضوع الكوارث الطّبيعية وخاصّة الأوبئة، إلى النّقص الفادح في المادّة المصدريّة المتعلّقة بالعصر الوسيط. فهي مشتّتة في عديد المصادر التّاريخيّة، والمناقبيّة، والتّراجم والفتاوى وكتب الرّحلات...وغير دقيقة، لغياب الإحصائيّات وتُعبّر عن عقليّة إسكاتولوجيّة موغلة في الغيبيّات.

يعدّد الباحثون في موضوع الأوبئة ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط الكثير من أصناف المصادر الّتي يمكن اعتمادها:

- المصادر المخصّصة للأوبئة: وهي الّتي توفّر المادّة الأهمّ فيما يتعلّق بهذا الموضوع، غير أنّها تقتصر على بعض المجالات الجغرافيّة لبلاد المغرب مثل المغرب الأقصى، أو تهتمّ بفترة تاريخيّة قصيرة، ومن هذه المصادر ما يتعلّق بوثائق الجنيزة التي تتوفّر على معلومات عن حياة وموت التّجّار اليهود، الذين كانوا ينتقلون بين المغرب والأندلس وفي اتّجاه تونس ومصر، ومن بينها مقال في " إذا نزل الوباء بأرض قوم"، وكتاب الطّاعون، وتحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ورسالة في اجتناب وباء الطّاعون، ودفع النّقمة في الصّلاة على نبيّ الرّحمة، والطبّ المسنون في دفع الطّاعون و"المقالة الحكميّة في الأمراض الوبائيّة" والطبّ في تدبير المسافرين، ومرض الطّاعون والأجوبة التّونسيّة على الأسئلة الغرناطيّة للإجابة على أسئلة تتعلّق بالطّاعون الذي ضرب الأندلس، سنة 899هـ/ 1494م.

يتبيّن من خلال هذا الاستعراض السّريع للمصادر الّتي تعرّضت لموضوع الأوبئة والطّواعين في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، أنّها تنقسم إلى كتب طبّيّة صيدلانيّة، وأخرى تشتمل على فتاوى وكتب فقهيّة، وأخرى وعظيّة، كما أنّها لا تقتصر على بلاد المغرب وحدها وإنّما تمتدّ إلى بلاد الأندلس.

- المصادر التّاريخيّة: تناولت مسألة الأوبئة بطريقة عرضيّة وبأشكال وأحجام مختلفة، وفي هذا الصّدد نجد إشارة في

بضع كلمات تتحدّث عن وباء أصاب إفريقيّة لمدّة سبع سنوات، ابتداء من 129هـ/ 747م، (ابن عذاري، 1983، ص. 60) ولم يكن الغرض من هذه الإشارة الإخبار عن الوباء بقدر ما كان تنويها باستجابة دعاء الوالي (حنظلة بن صفوان) بعد أن طرده عبد الرّحمان بن حبيب الفهري من إفريقيّة، ليستولي عليها، خلافا لابن عذاري (ت بعد 712هـ/ 1212م)، ذكر ابن أبي زرع (ت 741هـ/ 1341م) الكثير من الأوبئة الّتي ضربت المغرب بداية من الدّولة الإدريسيّة الحسنيّة إلى سنة 726هـ/ 1326م في إشارات قصيرة كثيرا ما ترتبط بالكوارث الطبيعيّة والمجاعات (ابن أبي زرع، 1999، ص. 49، 119، 120، 121، 124، 350، 361، 362، 539). وفي نفس الإطار أورد ابن خلدون (808هـ/ 1406م) فصلا سمّاه "في وفور العمران آخر الدّولة، وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات" (ابن خلدون، 1993، ص. 367)، وفيه يذكر "وأمّا كثرة الموتان: فلها أسباب من كثرة المجاعات، أو كثرة الفتن لاختلال (الدّول) فيكثر الهجر والقتل أو وقوع الوباء، وسببه في الغالب فساد الهواء وهو غذاء الرّوح الحيواني وملابسه دائما فيسري الفساد إلى مزاجه، فإذا كان الفساد قويّا وقع المرض في الرّئة. وهذه الطّواعين وأمراضها مخصوصة بالرّئة، وإذا كان الفساد دون القويّ والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك..." (ابن خلدون، 1993، ص. 367- 368). وأمّا ابن الشّمّاع (ت 861هـ/ 1441م)، فذكر في هذا الصّدد " وانتفضت إفريقيّة على السلطان أبي الحسن، واشتدّ القلق في الطعام فبلغ قفيز القمح ثمانية دنانير كبيرة والشعير على الشطر في ذلك وكثر الوباء" (ابن الشّمّاع، 1984، ص. 98)، وهو ما يؤكّد نظريّة ابن خلدون في الرّبط بين الفتن والمجاعات والأوبئة.

فضلا عمّا سبق ذكره، تكاد الكتب التّاريخيّة المغربيّة لا تخلو من الإشارة إلى تكرّر ظاهرة الأوبئة في بلاد المغرب طيلة العصر الوسيط (الزّركشي، 1966، ص. 147).

- كتب الطّبقات والتّراجم، تُعتبر هذه الكتب بالغة الأهميّة في مجال دراسات التّاريخ الاجتماعي، أمّا فيما يتعلّق بدراسات الدّيمغرافيا التّاريخيّة، فتكمن أهمّيتها في تواريخ الولادة والوفاة للتّعرّف على معدّل أمل الحياة فضلا على علاقات المصاهرة وعدد الأبناء وسنّهم عند الوفاة... وما يهمّنا من هذه المصادر فيما يتعلّق بموضوع الأوبئة الكبرى في بلاد المغرب هو أسباب وفاة المترجم لهم باعتبارهم النّخبة العلميّة أو السّياسيّة أو الاجتماعيّة في المجتمع. وفي هذا الإطار يمكن الرّجوع إلى بعض كتب الطبقات، وأهمّ كتب التّراجم مثل رياض النّفوس للمالكي.
- مصادر أخرى، لها أجناس متنوّعة ومن أبرزها الكتابات المناقبيّة وكتب الفقه والرّحلة. أمّا الكتب المناقبيّة، فتُبرز في معظمها كرامات الأولياء والصّلحاء في علاج المصابين بالأمراض الوبائيّة عبر مجرّد زيارتهم (ابن الصّبّاغ، مخطوط رقم 18555، ص. 201ب- 202أ)، أو عبر تفل هؤلاء على المرضى (مناقب التبّاسي، 2012، ص. 23 وما تلاها). ولا تختلف كتب الفقه كثيرا عن كتب المناقب في تعاملها مع الأوبئة، لأنّها تعالج المسألة بوصفها ابتلاء من عند الله، فتمّ فيها شرح الأحاديث والآيات القرآنيّة الّتي تعرّضت لهذا الموضوع. كما ذكر الفقهاء مثل البخاري في كتاب "الطبّ"، ومسلم في كتابي "الحجّ" و"الإمارة"، وأبو داوود في كتابي "الجنائز" و"الفتن"، والنّسّائي في كتابي " الجهاد" و"الجنائز"، ومالك في كتاب "الجامع" الوسائل العلاجيّة الرّوحيّة اللاّزمة للاستشفاء من الأوبئة من أدعيّة وتوسّل واستغفار (سندس بن حمد، 2020، ص. 199). وفيما يتعلّق بكتب الرّحلة، يمكن أن نجد معلومات شديدة الأهميّة عن الأوبئة الّتي عرفتها بلاد المغرب خلال العصر الوسيط عند الرّحّالة الذين زاروا هذه البلاد.

من خلال هذا الاستعراض للمصادر التي تعرّضت لموضوع الأوبئة، ورغم أهميّة البحث من ناحية الكمّ والكيف لا يُمكن أن يدّعي الشّموليّة، لاحظنا تنوّعا في أجناس الكتابات المصدريّة الّتي يمكن اعتمادها في دراسة الأوبئة ببلاد المغرب في العصر الوسيط، وإلى جانب تعدّد هذه المصادر واشتراكها في بعض الجوانب مع مصادر بقيّة مناطق العالم الإسلامي، فإنّ المعلومات الواردة فيها مقتضبة في أغلب الأحيان، ومتشابهة كثيرا حتّى لا نكاد نجد أيّة خصوصيّة تفرّق منطقة عن أخرى. إنّ ما توفّره المصادر –المذكورة آنفا– من معلومات يفتقد تماما للدّقّة

والأرقام، وهو من شأنه أن يعيق اعتماد مقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة، لإبراز الملامح الدّيمغرافيّة للمجتمعات المغاربيّة خلال العصر الوسيط.

2- الأوبئة والدّيمغرافيا التّاريخيّة:

تكاد تفتقد كلّ مصادر العصر الوسيط في الشّرق والغرب لأيّة معطيات إحصائيّة جيّدة وموثوق بها، وإذا كان بإمكان اعتماد المختصّ في الدّيمغرافيا التّاريخيّة في الغرب المسيحي على معطيات إحصائيّة غير علميّة، مثل السجّلات الكاثوليكيّة، التي ذكر فيها الكهنة، انطلاقا من القرن السّادس عشر ميلادي أعداد المعمّدين والمتزوّجين والمدفونين في كلّ أبرشيّة، فضلا عمّا توفّره قائمات الضّرائب لكلّ عائلة وعقود الزّواج والنّقائش الجنائزيّة، مع كلّ ما تمثّله من صعوبات في معالجتها، فإنّ العمل في مثل هذا الميدان لبلاد المغرب في العصر الوسيط لا تتوفّر عنه أيّة إحصائيّات مهما كان نوعها، تمكّن من دراسة الأنماط الدّيمغرافيّة للسّكّان زمن الأوبئة للتّعرّف على نسبة الوفيات، وتوزيعها حسب الأعمار، والجنس، والحالة الاجتماعيّة، والنّشاط الاقتصادي. ويبقى المختصّ في الدّيمغرافيا التّاريخيّة في المجال المغاربي على ظمئه فيما يتعلّق بنسبة الوِلادات، ليعرف -ولو بصفة تقريبيّة- المدّة التي تتطلّبها هذه المجتمعات لتعويض خسائرها الدّيمغرافيّة، التي تسبّبها الأوبئة والجوائح.

في ظلّ غياب المعطيات الإحصائيّة بكافّة أشكالها، بما في ذلك غير العلميّة منها، يتبادر إلى أذهاننا أنّ اعتماد مقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة بالنّسبة إلى دراسة الأوبئة الكبرى في بلاد المغرب، خلال العصر الوسيط ضربا من ضروب الخيال، ولا يمكن للأبحاث العلميّة الأثريّة في هذا الصّدد أن تحوّل اعتماد ما يسمّيه الباحثون الغربيّون بالباليوديمغرافيا Paléodémographie التي تهدف إلى إعادة بناء ديمغرافيّة الشّعوب القديمة من خلال المخلّفات الأركيولوجيّة المتمثّلة في البقايا العظميّة وآثار التّعمير البشري في موقع ما، أو جهة ما، مع كلّ ما ينجرّ عن ذلك من تشكيك في صحّة كلّ ما يقع التّوصّل إليه من معطيات ديمغرافيّة، لأنّ هذه المقاربة لا تُعتمد إلاّ في المواقع المهجورة التي كثيرا ما توجد في الطّبقات المردومة من الأرض، وبالرّغم من هذه الصّعوبات التي تعترض الباحثين في اعتماد مقاربة الدّيمغرافيّة التّاريخيّة في دراسة الأوبئة الكبرى أو الجوائح في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، فإنّ اعتمادها يبقى ممكنا باعتماد التّوجّهات الكبرى للأنماط الدّيمغرافيّة السّائدة في تلك الفترة، وتجميع المادّة المشتّتة المتعلقة بهذا الموضوع عبر اعتماد التّكنولوجيا الحديثة. بالرّجوع إلى المادّة التي توفّرها مختلف المصادر في موضوع الأوبئة، نلاحظ أنّ أغلبها وخاصّة التّاريخيّة منها لا يشير إلاّ إلى الأوبئة الكبرى منها، في علاقة بأحداث سياسيّة معيّنة أو بشخصيّة مرموقة من أصحاب النّفوذ والسّلطة. وتجدر الإشارة إلى وجود ارتباط وثيق في بلاد المغرب في العهد الوسيط بين الأوبئة والمجاعات والكوارث الطّبيعيّة، وهو ما ولّد أزمات ديمغرافيّة متواترة تواصلت بنفس الحدّة إلى حدود القرن التّاسع عشر وحتّى العشرين. ويذهب البعض إلى أنّ حالة الرّكود الاقتصادي والاجتماعي الذي تردّت فيها بلاد المغرب منذ أواخر العصور الوسطى، تعود أساسا إلى الأزمات الدّيمغرافيّة المتتالية، مقارنة ببلدان الضّفّة الشّماليّة للبحر المتوسّط (ياسر الهلالي، 2020). ويمكن أن تكون الأزمات الدّيمغرافية المتتالية من بين أسباب التّدهور الاقتصادي والاجتماعي لبلاد المغرب، ولكنّها ليست وحدها، لأنّ أوروبا عرفت في نفس الفترة عديد الأزمات المماثلة، وهذا ما نجد صداه عند عديد المختصّين في التّاريخ الاقتصادي والدّيمغرافيا التّاريخيّة مثل Jean Meuvret و Pierre Botruche و Pierre Goubert.

إنّ ما ورد عند الدّارسين الغربيّين حول التّوجّهات الدّيمغرافيّة الكبرى في علاقة بالأوبئة الكبرى وما ينجرّ عن ذلك من كثرة الوفيات، وما يصاحبه من قلّة إنتاج بسبب تراجع قوّة العمل المتمثّلة في البشر، لا يختلف كثيرا عمّا توفّره المصادر والدّراسات المغربيّة حول الأزمات الدّيمغرافيّة المتتالية في بلاد المغرب، خلال العصر الوسيط والعصر الحديث، بسبب كثرة الأوبئة والمجاعات وتوالي الكوارث الطّبيعيّة.

إنّ التّشابه في الظّروف الدّيمغرافيّة الّتي تتّسم بالنّموّ الدّيمغرافي الطّبيعي بين ضفّتي البحر المتوسّط الشّماليّة والجنوبيّة خلال العصر الوسيط بسبب تفشّي الأوبئة وتتاليها، شهد على ما يبدو تغييرا في القرن الثّامن عشر، إذ تنامت الولادات في أوروبّا وخاصّة في بريطانيا العظمى مقارنة بالوفيات، في حين ظلّت الولادات مثل الوفيات مرتفعة في بلاد المغرب، وما جعلنا نفترض مثل هذا الأمر هو ظهور النّظريّة المالتوسيّة malthusianisme المتمثّلة في التّطوّر المضاعف لعدد السّكّان مقارنة بتطوّر إنتاج الأغذيّة الضّروريّة للعيش، ممّا جعله يذهب إلى أنّ ارتفاع عدد السّكّان هو بمثابة الخطر الّذي يتهدّد بقاء العالم، فيدعو إلى التّقليص في نسبة الولادات.

بالاعتماد على ما تقدّم ذكره، يبدو أنّ معالجة ما توفّره المصادر بمختلف أنواعها عن الأوبئة الكبرى، يمكن أن يفتح سبل بحث جديدة باعتماد مقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة، والمقارنة بين بلاد المغرب والغرب المسيحي في العصر الوسيط.

وبالرّغم من انتماء التّوجّهات الدّيمغرافيّة الكبرى الّتي كانت تسود النّمط الدّيمغرافي على ضفّتي البحر المتوسّط، خلال العصر الوسيط إلى النّمط الدّيمغرافي الطّبيعي، ذي نسبة الوفيات المرتفعة بسبب الكوارث الطّبيعيّة والمجاعات والأوبئة، ونسبة الولادات المرتفعة بسبب الزّواج المبكّر وعدم وجود موانع الحمل، وأمل الحياة القصير بسبب سوء التّغذيّة والحروب وعدم التّوقّي من الأمراض، فإنّ تطوّر هذا النّمط لم يكن متجانسا بين بلاد المغرب وأوروبا، ولا يمكن أن نقف على التّفاوت في تطوّر النّمط الدّيمغرافي بصفة علميّة إلاّ إذا توفّر البحث في مجال الدّيمغرافيا التّاريخيّة بصفة متوازنة بين ضفّتي البحر المتوسّط، غير أنّ المطّلع على ما يتعلّق بمستوى البحث في هذا المجال يدرك جيّدا التّفاوت الكبير بين ما تمّ تحقيقه في أوروبّا وما ظلّ ينتظر أن يتحقّق في البلدان المغربيّة.

من أبرز العوائق التي حالت دون دراسة الأوبئة –من وجهة نظر الدّيغرافيا التّاريخيّة في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط– هو تشتّت المادّة التّاريخيّة في مصادر متنوّعة الأجناس بحيث تتراءى للباحثين وكأنّها ضئيلة وغير ذات معنى لتكرّر المعاني فيها، خلافا لأوروبا وخاصّة فرنسا التي تطوّرت فيها مقاربات الدّيمغرافيا التّاريخيّة ومناهجها، فاشتغل الباحثون كثيرا على المصادر المتعلّقة بهذا المجال. أمّا الباحثون المغاربة فقد اقتصر اشتغالهم على مسألة الأوبئة على مقاربة التّاريخ الاجتماعي، فظلّ اطّلاعهم على مصادرها غير شامل وزوايا نظر مقارباتهم محدودة يكرّر بعضهم البعض. ولتجاوز هذا القصور، وتقليص الفجوة بين الأبحاث الغربيّة في مسألة الأوبئة والأبحاث المغربيّة، لا بدّ من الاشتغال كثيرا على المصادر المتعلّقة بها، بدءا بتجميع المادّة المشتّتة بمختلف أنواعها، ثمّ تصنيفها بعد فرزها وفحصها، ثمّ وضعها في قاعدة بيانات ليشتغل عليها باحثون كثيرون بمناهج كمّيّة وأخرى كيفيّة تمكّن من مقارنة تطوّر بعض مظاهر الأنماط الدّيمغرافيّة التي لها علاقة بظاهرة الأوبئة الشّديدة الانتشار في عالم ما قبل الثّورة الصّناعيّة وما صاحبها من تطوّر في مجال حفظ الصحّة، عبر انتشار التلاقيح للتّوقّي من الأمراض المعديّة وتحسين مستوى العيش، الذي كان له تأثيرا على تطوّر معدّل أمل الحياة.

يبدو اعتماد مقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة في دراسة ظاهرة الأوبئة في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، كفيلة بتحقيق التّجديد والإضافة في دراسة المجتمعات، غير أنّ طبيعة المصادر الإخباريّة و"الطبّيّة" والمناقبيّة الموغلة في الغيبيّات، لا تخوّل اعتماد مثل هذه المقاربة إلاّ بعد معالجتها عبر التّكنولوجيّات الحديثة، التي يمكن أن تحوّل بعض المعلومات الواردة فيها إلى معارف كمّيّة تُعتمد لدراسة تأثير الأوبئة على الدّيمغرافيا ورسم مراحل تطوّرها وتأثيراتها، مع إمكانيّة مقارنتها بتأثيراتها على مجتمعات أخرى، وخاصّة تلك الموجودة في الضّفّة الشّماليّة للبحر المتوسّط.

الخاتـــمـــــة:

ركّزت هذه الورقة في معالجتها لموضوع الأوبئة الذي كثُر الاهتمام به في سياق ظهور وباء كوفيد19 وانتشاره مع كلّ ما خلّفه من خوف وفزع على حاضر الإنسانيّة ومستقبلها، على مسائل منهجيّة دون التّطرّق إلى الظّاهرة في حدّ ذاتها. فالأوبئة رغم تواترها في العالم غير أنّ أسباب انتشارها وتأثيراتها الدّيمغرافيّة والذّهنيّة تختلف من سياق لآخر، ومن مجال إلى مجال، لذلك نعتقد أنّ وعي الباحث يصبح بالغ الأهمّيّة متى أراد التّطرّق إلى مثل هذه الظّواهر عبر التّاريخ. لقد سبق وأن تناول الكثير من الباحثين المغاربة بالدّرس مثل هذه الظّاهرة، ولكنّ تناولهم لها لم يتجاوز مجرّد الوصف في إطار ما يُسمّى بالتّاريخ الاجتماعي، مع التّأكيد على النّقص الفادح في المادّة المصدريّة. وهذا ما جعلنا نولي اهتماما كبيرا لمسألة المصادر الّتي رغم كثرتها وتنوّعها لا تُوفّر في أغلب الأحيان سوى معلومات مقتضبة ومشتّتة وموغلة في الغيبيّات، تفتقد تماما لأيّ نوع من المعطيات الإحصائيّة والأرقام التي من شأنها أن تؤدّي إلى التعرّف بدقّة على طبيعة هذه الأوبئة وتواترها والمجالات الجغرافيّة الأكثر تأثّرا بانتشارها، ومن ثمّة تأثيرها على الأوضاع الدّيمغرافيّة التي تؤثّر بدورها على الأوضاع الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والذهنيّة، لسكّان بلاد المغرب في العصر الوسيط. لقد أثّر اقتضاب المعطيات الموجودة في المصادر وتشتّتها، فضلا على عدم موثوقيّتها، كثيرا على دراسات الباحثين المغاربة التي أُنجزت إلى حدّ الآن والتي طغى عليها الوصف والتّكرار. ولتجاوز هذا العُقم المعرفي والمنهجي في دراسة الأوبئة، نقترح أن ينكبّ الباحثون في مراكز بحث تتوفّر على إمكانيّات تكنولوجيّة متطوّرة، لتجميع المادّة المصدريّة المشتّتة لفرزها وتبويبها، ليتمّ بعد ذلك إنجاز مدوّنة خاصّة بظاهرة الأوبئة تُنشر في قاعدة بيانات يمكن تحويل البعض منها إلى معطيات كمّيّة قد يتوصّل من خلالها بعض الباحثين المختصّين في الدّيمغرافيا التّاريخيّة من استغلالها كيفيّا لتوضيح تأثير تواتر الأوبئة على التّوجّهات الدّيمغرافيّة الكبرى مع مقارنتها بمجالات أخرى لمعرفة نقاط الاختلاف والتّشابه بينها، كما يُمكن لمقاربة الدّيمغرافيا التّاريخيّة عند اعتمادها على مدوّنة الأوبئة المغربيّة متى توفّرت، أن تدرس التّطوّر الدّيمغرافي لسكّان بلاد المغرب حسب السّياقات التّاريخيّة وطبيعة التّنظيمات الاجتماعيّة في تطوّرها وتأثّرها بالآخر والتّأثير فيه، قد تتكرّر

الظّواهر ولكنّ الواقعي والذّهني يختلف من سياق إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن أبي الدّنيا (281هـ/ 894م)، **كتاب الطواعين**، مفقود.
- ابن أبي زرع الفاسي (726هـ/ 1326م)، **الأنيس المُطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكيّة، الرّباط، 1999.
- ابن الجزّار القيرواني (ت 369هـ/ 980م)، **نعت الأسباب المولّدة للوباء وطريق الحيلة في ذلك وعلاج ما يُتخوّف منه**، مفقود.
- ابن الشماع محمد بن أحمد الهنتاتي المعروف بابن الشّمّاع (873هـ/ 1459م)، **الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة**، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدّار العربيّة للكتاب، طرابلس، 1984.
- ابن الوردي زين الدّين (749هـ/ 1348م)، **النّبا عن الوبا**، ذكرها ابن حجر العسقلاني في **بذل الماعون**.
- ابن حمد سندس، **الكوارث والظّواهر الطّبيعيّة وانعكاساتها على المجال الصّحّي في إفريقيّة خلال العصرين الموحّدي والحفصي**، رسالة دكتورا في التّاريخ الوسيط تحت إشراف عبد الحميد الفهري، جامعة صفاقس، تمّت مناقشتها سنة 2020.
- ابن حوقل النّصيبي أبو القاسم (367هـ/ 977م)، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.
- ابن خلدون عبد الرّحمان (808هـ/ 1406م)، **المقدّمة**، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1993.
- ابن سينا الحسين بن عبد الله (ت 428هـ/ 1037م)، **دفع المضار الكلّيّة عن الأبدان الإنسانيّة**، حقّقه زهير البابا، معهد التّراث العلمي العربي بجامعة حلب، 1984م.
- ابن عذاري المراكشي (695هـ/ 1296م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، الدّار العربيّة للكتاب، بيروت، 1983، ج.1.
- أبو جعفر أحمد بن صفوان المالقي (ت 763هـ/ 1362م)، مفقود.
- الأخضر العربي، "الأوبئة في الفترة المتأخّرة من العصر الوسيط في المغرب الأوسط"، **مجلّة آفاق فكريّة**، 2021، مجلّد 9، عدد 2، ص. 48.
- الأسلمي البلياني أبو عبد الله محمّد (774هـ/ 1374م)، **إصلاح النيّة في المسألة الطّاعونيّة**، مخطوط.
- الأنصاري الرّصّاع التّونسي أبو عبد الله محمّد بن القاسم (ت 894هـ/ 1489م)، **الأجوبة التّونسيّة على الأسئلة الغرناطيّة**، مخطوط.
- الأنطاكي الحنفي البروسي عبد الرّحمان (ت758هـ/ 1357م)، **وصف الدّواء في كشف آفات الوباء**، مفقود
- البسطامي عبد الرّحمان الأنطاكي الحنفي زين الدّين (ت 858هـ/ 1454م)، **الأدعية المنتخبة في الأدوية المجرّبة**؛ مخطوط.
- البغدادي عبد اللّطيف، (ت 629هـ/ 1232م)، **الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، مطبعة وادي النّيل، 1286هـ.
- البلقيني علم الدّين صالح (ت 868هـ/ 1464م)، **إظهار النّبا في سؤال دفع الوباء**، تحقيق الشّيخ أبي عبيدة مشهور بن حسن ضمن مجموع **فتاوى البلقيني**.
- بوجرّة حسين، **الطّاعون وبدع الطّاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350– 1800)**، سلسلة أطروحات الدّكتورا، مركز الدّراسات العربيّة، بيروت، 2011.
- بولقطيب الحسين، **جوائح وأوبئة عهد الموحّدين**، منشورات الزّمن، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، 2002.
- البيّاض عبد الهادي، **الكوارث الطبيعيّة وأثرها في سلوك وذهنيّات الإنسان في المغرب والأندلس (6– 8هـ/ 12– 14م)**، دار الطليعة، بيروت، 2008.
- التّلمساني شهاب الدّين بن أبي حجلة (ت776هـ/ 1375م)، **دفع النّقمة في الصّلاة على نبيّ الرّحمة**، مخطوط بالأسكوريال.
- التّلمساني شهاب الدّين بن أبي حجلة، **الطبّ المسنون في دفع الطّاعون**، مخطوط بالأوقاف العامّة بطرابلس ونقل عنه السّيوطي.
- التّميمي أبو العرب (333هـ/ 945م)، **طبقات علماء إفريقيّة**، تحقيق علي الشّابّي ونعيم حسن اليافي، الدّار التّونسيّة للنّشر والمؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1985.
- التميمي المقدّسي محمد بن أحمد (كتب سنة 370هـ/ 981م)، **مادّة الإبقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الوباء**، حقّقه يحي الشّعّار، معهد المخطوطات العربيّة، 1999م.
- التّونسي عبد القاهر بن محمّد (ت 899هـ/ 1494م)، **الطبّ في تدبير المسافرين ومرض الطّاعون**، مخطوط
- التّونسي عبد القاهر بن محمّد، **الطبّ في تدبير المسافرين ومرض الطّاعون**، مخطوط
- تيتاو حميد، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609– 869هـ/ 1212– 1465م): إسهام في دراسة انعكاس الحرب على البنيات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والذّهنيّة**، مطبعة منشورات عكاظ، الدّار البيضاء، 2010.
- تيتاو حميد، **سراديب الموت ومداراته بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**، منشورة على موقع رباط الكتب، http.//ribatalkoutoub.com/ ?p-1069P
- التّيجاني أبو محمد عبد الله (721هـ/ 1321م)، **رحلة التّيجاني**، الدّار العربيّة للكتاب، تونس– ليبيا، 1981.

- حقّي حمّد، **الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط**، مطبعة مانبال، بني ملاّل، 2007.
- الحميري محمد بن عبد المنعم (ت. 723هـ/ 1323م)، **الرّوض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.
- خاتمة الأنصاري أبو جعفر أحمد، **تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**، حقّقه محمد حسن في كتاب ثلاث رسائل أندلسيّة في الطّاعون الجارف (749هـ)، المجمع التّونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، 2013.
- الرّازي أبو بكر (ت 313هـ/ 925م)، **السّبب في قتل ريح السّموم أكثر الحيوان**، مخطوط.
- الرّازي أبو بكر، **الرّسالة الوبائيّة**، مخطوط.
- الزركشي أبو عبد الله محمد (ت. بعد 887هـ/ 1482م)، **تاريخ الدّولتين الموحّديّة والحفصيّة**، تحقيق محمّد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
- السّبكي تاج الدّين (ت بالطّاعون 771هـ/ 1370م)، **جزء في الطّاعون**، مفقود.
- السُّرّمري الدّمشقي الحنبلي أبو مظفّر (ت 769هـ/ 1368م)، **ذكر الوباء والطّاعون**، مخطوط.
- السّعداوي أحمد، " المغرب الإسلامي في مواجهة الطّاعون: الطّاعون الأعظم والطّواعين التي تلته" **مجلّة إبلا**، عدد 175، 1995.
- السّعداوي أحمد، **الآفات والكوارث الطّبيعيّة بالمغرب الأوسط من منتصف القرن 7 إلى منتهى القرن 9 هجري**، شهادة كفاءة في البحث تحت إشراف رشيدة الرّمادي شابوطو، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، سبتمبر 1982.
- الشّيخ الحدادي المصري الشّافعي شرف الدّين (ت 871هـ/ 1467م)، **مختصر بذل الماعون**، مفقود...
- الصّالحي القادري زين الدّين (ت 856هـ/ 1452م)، **تسليّة الواجم في الطّاعون الهاجم**، مفقود.
- العبدري محمد بن محمد بن علي العبدري (700هـ/ 1300م)، **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدّين، دمشق، 2005، الطّبعة الثانية.
- العسقلاني ابن حجر (ت 852هـ/ 1448م)، **دعاء لدفع الطّاعون**، مخطوط بمكتبة المعهد الإسلامي...
- العسقلاني ابن حجر، **بذل الماعون في فضل الطّاعون**، تحقيق كيلاني خليفة، مكتب التّوعيّة الإسلاميّة، 1983.
- العمري شهاب الدين (749هـ/ 1348م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في الحيوان والنّبات والمعادن**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، الطبعة الثانية، ج.4.
- الفاسي التّادلي أبو الحسن علي بن هيدور (ت 816هـ/ 1413م)، **المقالة الحكميّة في الأمراض الوبائيّة**، مخطوط في مؤسّسة علاّل الفاسي وخزانة عبد الهادي ومكتبة المعهد الإسلامي.
- القيرواني محمّد بن أبي القاسم بن أبي دينار (1111هـ/ 1698م)، **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس**، تحقيق وتعليق محمود شمّام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، الطبعة 2.
- الكركي ابن القفّ (ت 685هـ/ 1286م)، **جامع الغرض في حفظ الصّحّة ودفع المرض**، حقّقه سامي حمارنة، عمّان، الجامعة الأردنيّة، 1989.
- الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت 260هـ/ 874م)، **في الأبخرة المصلحة للجوّ من الوباء**، (مفقود).
- الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ا، **رسالة في إيضاح العلّة في السّمائم القاتلة السّمائيّة وهو القول المطلق في الوباء**، مفقود.
- الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، **رسالة في الأدوية المشفية من الرّوائح المؤذية**، مفقود.
- اللخمي الشّقوري الأندلسي أبو عبد الله محمّد بن علي (كان حيّا سنة 776هـ/ 1375م)، **رسالة في اجتناب وباء الطّاعون**، مخطوط في عدّة نسخ موزّعة بين الخزانة العامّة وخزانة عبد الهادي والأسكوريال.
- اللّخمي الشّقوري الأندلسي محمّد بن علي (كان حيّا سنة 776هـ/ 1375م) مخطوط في عدّة نسخ موجودة بالخزانة العامّة وخزانة عبد الهادي والأسكوريال.
- المالكي أبو بكر عبد الله بن محمّد (ت بعد 453هـ/ 1061م)، **رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، حقّقه بشير البكّوش وراجعه محمّد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، الطبعة الثانية، جزآن.
- المالكي بن الصّبّاغ (855هـ/ 1451م)، **مناقب أبي الحسن الشّادلي**، مخطوط رقم 18555 بالمكتبة الوطنيّة بتونس.
- المزدغي الفاسي أبو عبد الله محمّد (ت 655هـ/ 1257م)، " إذا نزل الوباء بأرض قوم"، مفقود
- المسيحي أبو سهل (401هـ/ 1011م)، "رسالة في تحقيق أمر الوباء والاحتراز منه وإصلاحه إذا وقع"، تحقيق لطف الله قاري في كتابه **رسالتان في الجغرافيا الطبيّة وتأثير البيئة مع دراسة عن تراثنا العلمي حول الموضوع**، جامعة الكويت والجمعيّة الجغرافيّة الكويتيّة، 2005.
- الملوي وليّ الدّين (ت 774هـ/ 1373م)، **حلّ الحبا لارتفاع الوبا**، مخطوط بدار الكتب المصريّة ضمن مجموع وقائم على تحقيقه صالح الأزهري الخبير بدار الكتب المصريّة.
- **مناقب أبي سالم التّبّاسي** تلميذ أبي الحسن الشّاذلي (642هـ/ 1244م)، تحقيق أحمد الباهي، دار كونتراست للنّشر، سوسة، 2012.

- المنبجي الحنبلي شمس الدّين (ت 785هـ/ 1383م)، **كتاب الطّاعون وأحكامه**، حقّقه أحمد بن محمد بن غانم آل ثاني، وهو من مصادر العسقلاني في **بذل الماعون** وأكثر من نقل عنه.
- النّاصري أحمد بن خالد (1250هـ/ 1897م)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق ولدا المؤلّف جعفر ومحمّد الناصري، دار الكتاب، الدّار البيضاء، 1956، ج. 1- 2 و3.
- الهلالي ياسر، " أثر الأوبئة على الأنشطة الاقتصاديّة في المغرب أواخر العصر الوسيط"، **Policy center for the new south**، 2020، /policycenter.ma/opinion.
- ياسين شادي، "الأوبئة والمجاعات في تاريخ المغرب: انتشارها وسبل مكافحتها"، ج, 1، **مدوّنة زوايا**، 2021، zawayablog.com/16288/ رباط الكتب، http.//ribatalkoutoub.com/ ?p-1069P.
- Boutruche Robret, **La crise d'une société, Seigneurs et Paysans du Bordelais pendant la guerre de cent ans,** Pais, Les Belles Lettres, 1947.
- D. S. Goïtein, **A Mediterranean Society,** University of California Press, 1999, T. 1 et 2.
- **Encyclopédie Universalis**, art. « Démographie Historique »**,** eu.fr
- Goubert Pierre, **Beauvais et Beauvaisis de 1600 à 1730,** Editions de la Sorbonne, Paris, 2013.
- Meurvet Jean, « Le crises de subsistance et la démographie de la France d'Ancien Régime », **Population,** 1946/ 1- 4, 643- 650.
- www.larousse.fr malthusianisme.